جامع ومرقد الإمام الأعظم
معلم إسلامي في عاصمة الرشيد

تحقيق وتصوير:
وليد عبد الأمير علوان

عندما بنى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور مدينة بغداد أطلق عليها اسم (مدينة السلام). وكما توقع من أشار عليه باختيارها عاصمة للخلافة الإسلامية، صارت هذه المدينة قبلة توجهت إليها جموع العلماء والفقهاء، فمنهم من اتخذها دار علم، ومنهم من اتخذها دار سكنى. فلا غرابة إذن في أن تضم هذه المدينة، والتي صار عمرها الآن 1289 سنة، مرقدين من مراقد أصحاب المذاهب الإسلامية الخمسة، هما مرقدي الإمام أحمد بن حنبل، والإمام أبو حنيفة (رضي الله عنهما).

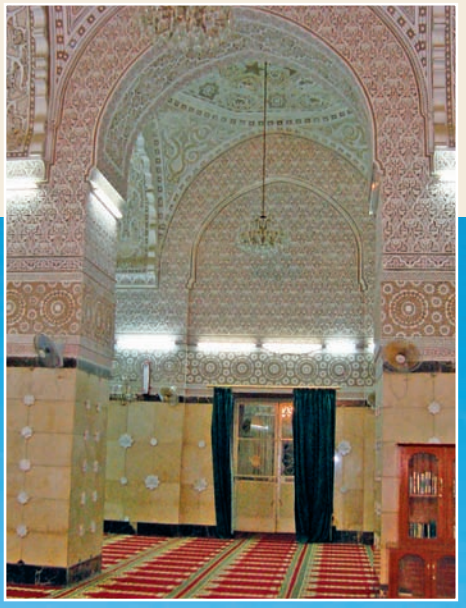

الحرم الكبير
The large prayer room

في أحد أحيائها القديمة ذي الطابع المعماري البغدادي الأصيل، من ناحية هندسة البيوت والمباني والأسواق والمحلات القديمة، والتي تشم منها رائحة بغداد (ألف ليلة وليلة)، وعلى مقربة من نهر دجلة الخالد، وفي منطقة الأعظمية، يقع مرقد (معلم الفقهاء) و (فقيه المعلمين) الإمام (أبو حنيفة) الذي دفن في هذه المنطقة سنة 150 هـ

والتسمية

تقع الأعظمية، والتي يطلق عليها اسم (جوهرة الرصافة)، على نهر دجلة، شمال مدينة بغداد، مسافة 12 كم، وعلى جانبه الغربي . وقد جاء في تاريخ هذه المنطقة، أنها بنيت ضمن منطقة

الجامع والضريح
The mosque and mausoleum

الضريح The mausoleum

جانب من الصحن The courtyard

الرصافة، إثر حوادث شغب فرقة (الراوندية)، زمن الخليفة أبو جعفر المنصور، حيث خصصت لسكن التجار الموسرين، وكبار رجالات العصر، الذين قاموا ببناء قصورهم هناك، ثم ما لبثت أن ازدهرت فيها الأسواق، وأشهرها (سوق يحيى)، الذي ذكره المؤرخون، ومنهم ابن الجوزي واليعقوبي والخطيب البغدادي .

لقد كان من ضمن منطقة الأعظمية ، مقبرة تسمّى بـ(مقبرة الخيزران)، وعند وفاة الإمام أبو حنيفة (رض) دفن في هذه المقبرة، ثم ما لبثت أن عرفت بمحلة (أبي حنيفة)، أو (الأعظمية)، نسبة إلى لقبه (الإمام الأعظم) .

صاحب المقام

هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي بن المرزبان، من أهالي كابل (أفغانستان)، أسلم جده المرزبان، أيام الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، والذي اتخذ من الكوفة مسكنا له، حيث ولد لنعمان هناك سنة (80هـ - 701م)، في خلافة عبد الملك بن مروان. وكان والي الكوفة حينها، الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي امتاز حكمه بالقوة والقهر، وقد رأى أبو حنيفة قسوة الحجاج، وما لحق بالناس من أذى، فأثّر هذا كثيرا في نفسه، وولّد لديه البغض للدولة الأموية، لذلك ساهم في حركة الانقلاب عليهم، وانضم إلى جانب العباسيين في دعوتهم لنصرة أهل البيت (عليهم السلام) .

أخذ أبو حنيفة العلم في بواكير حياته في الكوفة، وانتظم في مجالس الدرس هناك، ثم انتقل إلى بغداد، حيث تتلمذ لمدة سنتين على يدي الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع). ثم تصدّى للتدريس والفتيا، حتى صار إمام أهل الرأي وصاحب مدرسة القياس في الفقه الإسلامي ورأس المذهب الحنفي، والذي هو أحد أهم مذاهب أهل السنة والجماعة، وقد تتلمذ على يديه الكثير من الفقهاء، وأشهرهم القاضي أبو يوسف.

لقد أفتى أبو حنيفة، بخروج الناس مع إبراهيم بن عبد الله المحظ بن الإمام الحسن بن علي (ع)، في ثورته أيام المنصور العباسي، حيث ذكر ابن خلكان في (وفيات الأعيان) أنه قد كتب إلى إبراهيم ما نصه: (أما بعد فإني قد جهزت إليك أربعة آلاف درهما، ولم يكن عندي غيرها، ولولا أمانات للناس عندي للحقت بك، فإذا لقيت القوم وظفرت بهم، فافعل كما فعل أبوك في أهل صفين، أقتل مدبرهم وأجهز على جريحهم، ولا تفعل كما فعل أبوك في أهل الجمل، فإن القوم أهل فتنة). ويقال إن الكتاب وقع بيد المنصور، وكان سببا في تغيّره على أبي حنيفة، مما دفعه إلى إيداعه السجن حتى مات. وقيل إنه دسّ إليه السم، مما كان سببا في وفاته، وذلك عام 150 للهجرة في بغداد، ودفن في هذا

الواجهة The front

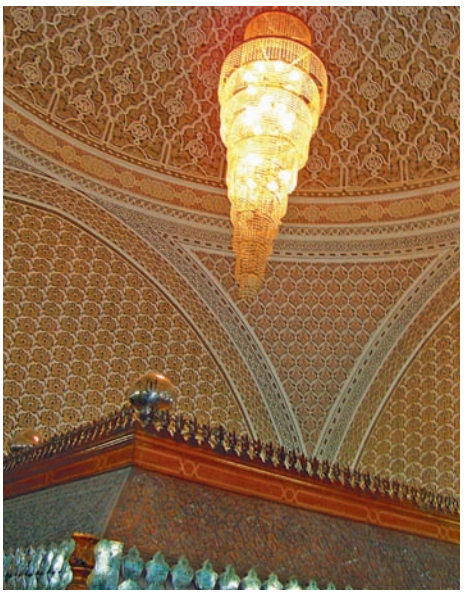

الضريح The mausoleum

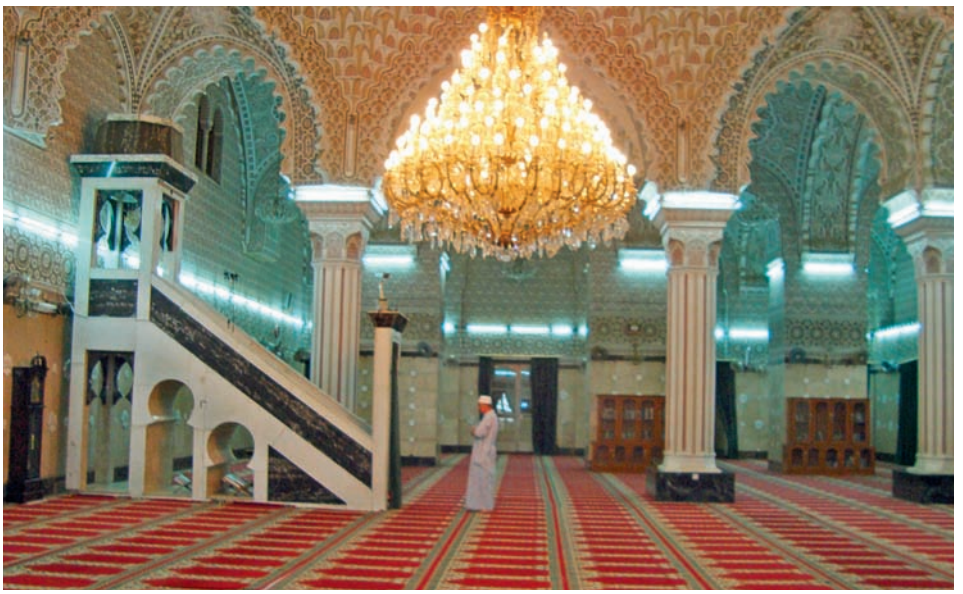

الحرم الكبير The large prayer room

الموضع، وقد ترك إرثا فقهيا لا زال يدرّس في المدارس والجامعات الدينية الإسلامية.

المشهد المقدّس

شأنه شأن المراقد المقدّسة الأخرى، فقد مرّت عمارة المرقد بمراحل متعددة، وكانت أبرزها زمن السلاجقة، حيث جدد عمارته شرف الدين أبو سعيد الخوارزمي، زمن السلطان السلجوقي (آلب أرسلان) وبنى عليه قبة كبيرة. ويعود تاريخ بناء الجامع الحالي، إلى سنة 1871م، وتاريخ قبة الجامع الحالية إلى 1638م. وتوالت عليه التطورات وكان أبرزها عام 1948 ، حيث اتخذ فيه المسجد شكله الحالي تقريبا .

المشهد عموما، روعة من روائع العمارة الإسلامية، لما يحتويه من زخارف جميلة نقشت على الآجر، وتحف فنية من الآيات القرآنية المكتوبة على القاشاني الأزرق.

وبمجرد اجتيازك حواري المدينة القريبة من المسجد، هناك ساحة مفتوحة تفصلك عنه. وأول ما يظهر للزائر هو قباب المسجد وعددها أربعة، اثنتان منها على شكل مدبب، في حين أن الأخريين على شكل نصف كروي، وجميعها مكسوّة بالقاشاني. وقد تم تجديد قبة المرقد، حيث تم كساؤها بالرخام، وشكلها شبيه بالقباب المملوكية. وللمسجد مئذنتان، مشيّدتان على الطراز البغدادي، الذي يمتاز بالاهتمام بالزخارف، واحدة منهما ذات قبة ذهبية.

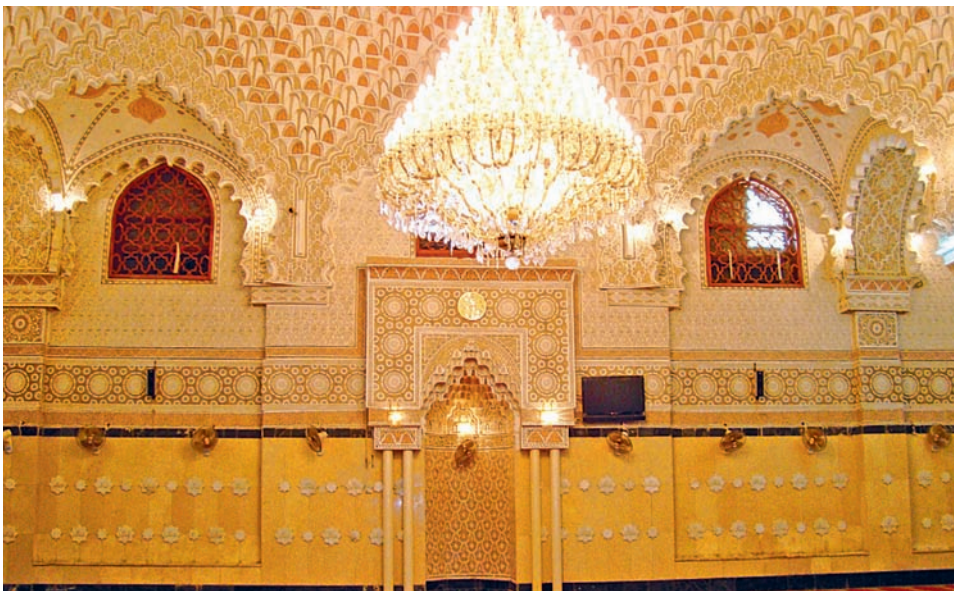

الحرم الكبير The large prayer room

السياج الخارجي للمسجد، مشيّد بالطابوق المنجور، ويحوي على نقوش جميلة. وهو مقسّم إلى قطع متساوية، يبلغ عرض كل واحدة منها مترا تقريبا. وتوجد في أعلى كل قطعة، وفي الجهة اليمنى منها، لوحة مصنوعة من الكاشي الكربلائي، مكتوب عليها اسم من أسماء الله الحسنى.

يتم الدخول إلى المسجد من خلال بوابتين، واحدة في الجهة الشمالية، وأخرى في الجهة الشرقية. عند اجتيازك للسياج الخارجي من خلال إحدى هاتين البوابتين، وكلاهما مصنوعة من الخشب الساج، تكون قد وصلت إلى صحن المسجد.

يمتاز هذا الصحن بوجود أقواس جميلة، في جهته الشمالية، مصنوعة من الطابوق المنجور، وعلى الطراز الإسلامي، وتوجد في أعلى هذه الأقواس، نقوش إسلامية، وفي أعلى النقوش، هناك شريط طويل مزين بالقاشاني، منقوشة عليه آيات من الذكر الحكيم. أما في الجهة الشرقية منه،

الحرم الكبير The large prayer room

الحرم الكبير The large prayer room

فهناك منارة الساعة، وبعدها المجموعة الصحية، في حين يوجد في جهته الغربية، مكان للاستراحة والخدمات.

برج الساعة

في الجهة اليمنى من الصحن، وللداخل من الباب الشمالي، هناك (برج الساعة)، وهو برج يبلغ ارتفاعه حوالي 20 مترا، ويختلف في عمارته، عن تلك التي تشتهر بها المراقد، والعتبات المقدسة في العراق، التي غالبا ما تكون على شكل مربع، حيث أنه بيضوي الشكل، وقد تم بناؤه من الآجر، وتم نقشه بزخارف جميلة، وتحتل الساعة أعلى هذا البرج.

الساعة ذات أربعة وجوه، وقد تمت صناعتها بأيد عراقية، حيث قام بصناعتها شخص يدعى (عبد الرزاق محسوب الأعظمي)، وذلك في معمله الخاص. واستغرقت عملية صنعها ثمان سنوات، للفترة من 1921 _ 1929, وتم نصبها عام 1958. وقد تم كساء برجها، في سبعينات القرن الماضي، بصفائح من الألمنيوم المذهّب، وهي تمتاز بدقتها، وقوة صوت أجراسها، حيث تسمع دقاتها على رأس كل ساعة بوضوح من خارج المسجد.

الرواق

عند اجتياز الصحن، هناك رواق أبعاده 1518م، يتم الدخول إليه عبر بوابتين صغيرتين. وعند

الجامع والضريح The mosque and mausoleum

اجتيازه، يتم الدخول إلى مرقد الإمام الأعظم من خلال باب خشبي صغير، ويمتاز هذا الرواق بجمالية النقوش التي تزيّن سقفه الأعمدة التي يستند عليها.

الخلوة

وقبل الدخول إلى الضريح، وعلى الجهة اليسرى من الباب المخصص لذلك، هناك مكتبة وخزانة خاصة بهدايا المرقد، والتي قدّمت من قبل الملوك ورؤساء الدول الذين زاروا الضريح، أو قاموا بإرسالها بيد مبعوثين عنهم، مع مجموعة من (النذور) التي قدمت من قبل التجّار الميسورين. وتحتوي هذه الخزانة كذلك على مخطوطات قيمة في علوم الحديث، والفقه، والتفسير. ولعل أشهر ما في إحدى خزائنها (شعرة الرسول (ص)). والتي يقال إنها من لحيته الطاهرة، أو ربما من شعر رأسه الشريف، وتسمّى هذه الغرفة بـ (الخلوة).

أما على الجهة اليمنى، من باب الدخول للضريح، فهناك مجاز واسع، يحتوي على أعمدة رخامية، وعند اجتيازك الباب الخشبي الذي لا يتعدى ارتفاعه مترين، وعرضه مترا واحدا، تكون قد وصلت إلى الضريح المقدّس.

الضريح

يوجد الضريح وسط الغرفة، التي لا تزيد مساحتها عن 66 م، حيث يعلو القبر قفص من الخشب الساج، على شكل مستطيل تتوسطه شبابيك مصنوعة من الفضة، عددها 14 شباكا، موزعة بواقع 8 شبابيك عن يمين ويسار القفص، و 6 عن شماله وجنوبه. يوجد في أعلى القفص شريط، يمتد على جوانبه الأربعة ويحتوي على آيات قرآنية، وبخط جميل.

جدران المرقد والسقف، مكسوة بالمرمر الأبيض المزدان بالنقوش الجميلة، وتتدلى من سقفه ثريا فوق شبّاك القبر مباشرة. وهناك لوحتان في ركنين من أركان غرفة الضريح، تحتوي كل منهما على قطعة من قطع كسوة الكعبة المشرّفة، ذات أبعاد 150 _ 75سم، وموضوعتان، داخل إطار خشبي جميل.

الحرم

ويوجد في غرفة الضريح، باب صغيرة يؤدي إلى الحرم الخاص بإقامة الصلاة. ويمتاز هذا الحرم بسعته، وبوجود أعمدة أسطوانية يرتكز عليها سقفه، والتي تم تزيينها بالنقوش المغربية الجميلة. ويتوسط هذا الحرم المنبر الخاص بإمام المسجد، وهو مصنوع من الآجر ومغلّف بالمرمر، تعلوه قبة صغيرة الحجم، تنتهي بحزام من المرمر على شكل هلال.

ويقع محراب الحرم على يسار المنبر وعلى جانبيه أربعة أعمدة اثنان من كل جانب على شكل أسطواني ، وهي مغلفة بالقاشاني وتعلوه مقرنصات جميلة. أرضية الحرم مكسوة بالسجّاد الفاخر المتناسق الألوان، والتي تبدوا كأنها قطعة واحدة.

ويتم الانتقال من الحرم الأول إلى الحرم الثاني عبر باب صغير، وهذا الحرم قد تم تخصيص جزء منه في نهايته الشمالية لصلاة النساء، عبر وضع حواجز تحجب الرؤيا.

يوجد في هذا الحرم المحفل الخاص بقراءة القرآن الكريم، وهو عبارة عن ناصية مصنوعة من الخشب الساج، يبلغ إرتفاعها حوالي ثلاثة أمتار، تخصص أثناء الاحتفالات لقراءة كتاب الله المجيد والمدائح النبوية. ويتم الصعود لأعلاها من خلال درج صغير موجود داخل هذه المقصورة.

المولد النبوي الشريف

يمتاز هذا الضريح بكثرة زوّاره خصوصا في الأماسي، حيث اعتاد أهالي منطقة الأعظمية، والمناطق القريبة منها، زيارته في المساء. كما أن ليالي شهر رمضان تحيا في هذا الضريح. ولعل أكثر ما يمتاز به هذا المشهد، هو إقامة الاحتفالية الخاصة بالمولد النبوي الشريف، وخصوصا تلك الاحتفالية المركزية التي تقيمها مؤسسات الدولة الدينية، الذي يصادف يوم 12 ربيع الأول من كل عام هجري. ويكون هذا الضريح هو مركز الاحتفالات بهذه المناسبة، سواء الاحتفالات الرسمية أم الشعبية، حيث يزيّن الضريح بالأضواء ، وتزدان المنطقة القريبة منه بالزينة والزهور والرايات. وتفد إلى الضريح وفود من مختلف مناطق العراق، لإحياء هذه الذكرى حتى الصباح الباكر، حيث تسير المواكب في المنطقة المحيطة بالضريح والجميع يرددون التواشيح، والأهازيج التي تمجد الرسول الأكرم (ص)، واعتاد البغداديون، وأهل المنطقة تحديدا، التجمع في مثل هذا اليوم، في هذا المكان، واستقبال الوفود التي تفد من المحافظات الأخرى، فيقدمون لهم الطعام والشراب والحلويات. ويعد ذلك أهالي المنطقة تخليدا لهذه المناسبة، وبذلك تضاف إلى خصوصيات هذا المسجد المبارك من كونه مكان للعبادة والتهجد إلى مركز للاحتفالات التي تمجد صاحب الذكرى، الرسول الأكرم (ص)، الذي تستحق ذكرى ميلاده الميمون منا كل تقديس وتبجيل واحترام. ■

باب كلية الإمام الأعظم — Imam Al-Aazam College

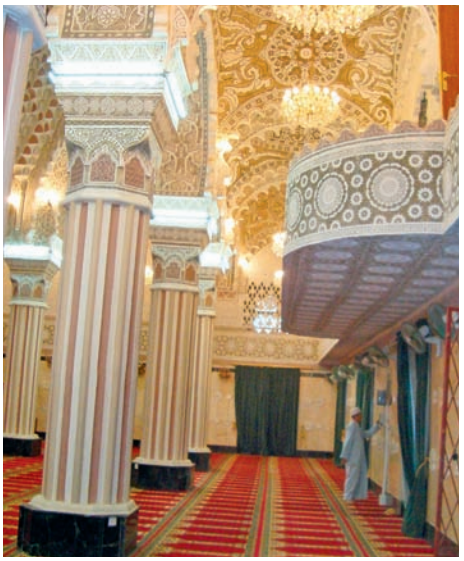

الحرم الكبير — The large prayer room